



وصل المراقبون العرب إلى سوريا كما هو معروف، وهم يحاولون منذ ثلاثة أيام البدء بتنفيذ "البروتوكول" الذي يقتضي إيقاف القتل وسفك الدم، وسحب الجيش والقوى الأمنية من المدن والبلدات، وإطلاق سراح الأسرى والمعتقلين، والتفكير في طرائق لإغاثة الشعب السوري في المحن الهائلة التي نزلت به نتيجة حروب الإبادة التي يشنها عليه نظامه منذ عشرة أشهر.

ولست مهتماً هنا بهل ينجح المراقبون في مهمتهم أم لا، وهل يستجيب النظام أخيراً أم لا. فكل ذلك لم يعد مهمًا ولا ممكناً. إذ لو تجاوب النظام، وحل نوع من الهدنة يتبع الانصراف لإغاثة الناس؛ فإنهم لن يكون الأكل والشرب والكهرباء ومداواة الجراح، والسؤال عن المعتقلين. بل ما سيفعله الباقيون على قيد الحياة بحمص وريفها، ودرعاً وريفها، وإدلب وريفها، ودمشق وريفها، وحماء وريفها، وكل البلدات والقرى، سيكون النزول إلى الشارع وبسلاط ومن دون سلاح، لمقاتلة النظام القاتل ولو بالأيدي والأذرع العارية. فنحن نتحدث عن نحو السبعة ألف قتيل، والأربعة عشر ألف مفقود، والسبعين ألف معتقل، وما يزيد على المائة ألف مشرد من مكان إلى مكان. وهذا فضلاً عن الذين لجؤوا إلى تركيا ولبنان والأردن والعراق. فقد كان في سوريا قبل عام أو بقي فيها نحو المليون عراقي، أما اليوم فإن أعداد العراقيين اللاجئين لا تكاد تذكر، وبدأ السوريون أنفسهم يهربون إلى العراق!

فلو أن النظام عاد إلى رشده - وهذا أمر مستبعد جداً - فمعنى ذلك أن ممثليه خلال شهر سيجلسون مع المعارضين بالداخل والخارج بالجامعة العربية، للتفاوض حول "حل سياسي". ولو أن المعارضين فعلوا ذلك - هم يقولون إنهم لن يفعلوا -، فلا شك أن الجمهور سينبذهم، ولن يقبل بالبقاء دقيقة واحدة تحت سلطة هذا النظام القاتل. فما مات من اليمنيين خلال عام لا يزيد على الأربعين، وهذا هي ملايينهم تخرج إلى الشارع فيما بين تعز وصنعاء لطالب بمحاكمة علي عبد الله صالح، بدلاً من إعطائه ضمانات قانونية هو وأقاربه ورجالات نظامه! ولذا فال واضح اليوم، ويل ومنذ ثلاثة أشهر أن التأثيرين الذين وطنوا أنفسهم على عدم الخضوع مهما كلف ذلك، سيمضون قدماً في ثورتهم، وسيزداد استعمالهم للسلاح للدفاع ثم للهجوم، وسيقاتلون مع "الجيش السوري الحر" لحين بلوغ القدرة على إسقاط النظام من طريق المقاومة الداخلية، والعقوبات العربية والدولية. فالحرب الأهلية بين السنة والعلويين مثلاً لن تقع. أما الذي سوف يقع أو بدأ يقع فهو أن قسمًا من الشبان الريفيين المشاركون في الاحتجاجات، يحملون السلاح الآن. والنزع الداخلي الذي يكثر الحديث عنه سيكون بين الشبان التأثيرين والمنشقين عن الجيش من جهة، والجيش والقوى الأمنية من جهة أخرى.

وإذا كانت هذه هي مآلات الثورة والثوار، فكيف يفكر النظام، والذي يفعله أو سيفعله. ما تزال لدى النظام آمال داخلية وخارجية. أما الآمال الداخلية فتمثل في اعتقاد القدرة على إخماد الحراك. ورجالات النظام يقولون إن ذلك ممكن لأن مناطق الالتهاب الحقيقي محدودة أو أنها لم تتطور منذ ثلاثة أشهر، وهي تمثل في درعاً وريفها، وإدلب وريفها، وحماة

وريها، وحمص وريفها. وبلغ حجم هؤلاء أكثر من مليونين، لكنهم الآن متبعون جداً، ويمكن أن ينكسرؤا؛ أو أن هذه هي آمال النظام. أما في الخارج فهناك إيران والماليكي بالعراق وحزب الله بليban، وهذه جهات معروفة دولياً، وقد توحدت الآن تقريباً في جهد مشترك استماتةً في الدفاع عن نفسها ونظام حليفها الرئيس الأسد. وقد ظل حزب الله على لسان أمينة العام ولعدة أشهر يعلل هذه "النصرة" الشرسة للنظام السوري بأنه نظام ممانعة ومقاومة. وقد كان الحزب بالاتفاق مع النظام السوري قد انقلب على حكومة سعد الحريري وأتى بميقاتي رئيساً للحكومة بلبنان. ومنذ ذلك الحين صار يعد لبنان وليس الحزب فقط ضمن محور الممانعة الذي فيه طهران والعراق وسوريا وحزب الله، وميقاتي ينكر ذلك بالطبع، لكن التركيبة التي أتى بها خاضعة للحزب والجنرال عون، ويشكل لبنان في وضعه الحالي منفذاً مالياً وتجارياً للنظام السوري المعزول، ويستطيع أركانه ورجال أعماله أن يتৎفسوا من خلال نظامه المصرفي الذي بدأ يتعرض للرقابة الأميركيه والدولية الشديدة.

وشأن الماليكي رئيس الوزراء العراقي مع النظام السوري، لا يختلف عن شأن حزب الله. لكن موقفه لم ينكشـف إلا عندما تفاقم الأمر وتدخلت الجامعة العربية، وظهر موقف لبنان وال伊拉克 متمايلاً أو مناقضاً للموقف العربي العام. وفي حين صمت رئيس الوزراء اللبناني في أكثر الأحيان، كان الماليكي قبل انفجار صراعه مع السياسيين السنة بالعراق، أكثر كلاماً وفصاحة. وقد تظاهر بالواسطة، وأرسل وفداً بالفعل إلى دمشق. وقال إنه على استعداد لاستقبال وفد من المعارضة. إنما الطريف كان ما علل به موقفه الداعم للنظام. قال الماليكي: "أنا قضيت في سوريا 16 عاماً -أي إن النظام له عليه جمائـل-، والنظام هناك قوي وليس إسقاطه سهلاً، ثم إن الوضع هناك معقد، وعدم الوصول إلى إجراء الإصلاحات بالتوافق سيؤدي إلى مشكلات كبرى". وهو يقصد بتعقيد الوضع الطبيعية الطائفية للنظام السوري، وأن العلوبيـن (والأقليات الأخرى) لن يتخلوا عن النظام الحالي دونما قتال، فتنجم عن ذلك نزاعات طائفية تشبه الحرب الأهلية. وتحليل الماليكي هذا يبدو مبالغـاً فيه إلا إذا وضعناه في السياق الكامل الذي يقصدـه، والذي عبر عنه الإيرانيـون وبعض السياسيـين العراقيـين، وهو النـزاع السنـي/الشـيعـي. فـهؤلاء يرون أن الثـورات العربـية تمثل صـحـوة سنـية، ولـدى بعض تـيـارات تلك الثـورـات (الـسلـفـية) عـداء لـلـشـيعـة، وهذا فـضـلاً عـنـ الـبعـدـ السـيـاسـيـ والإـسـترـاتـيـجيـ، فالـمحـورـ الإـيرـانـيـ محـورـ شـيعـيـ، والـعلـوـيـونـ بـالـمعـنـىـ الإـسـترـاتـيـجيـ، وـليـسـ الـدـينـيـ أوـ الـمـذـهـبـيـ، صـارـواـ جـزـءـاـ مـنـ الـامـتدـادـ الإـيرـانـيـ بـالـمنـطـقـةـ مـثـلـ شـيـعـةـ لـبـانـ أوـ بـعـضـ شـيـعـةـ الـخـلـيجـ. فإذاـ كانـ حـزـبـ اللهـ قدـ تعـطـىـ (دونـماـ نـجـاحـ كـبـيرـ) بـورـقةـ تـوتـ المـقاـومـةـ؛ فإنـ المـالـكـيـ مضـطـرـ لـلـإـفـصـاحـ أوـ الغـمـغـمةـ بـمـاـ يـتـجاـوزـ وـاجـبـاتـ الـجـوـارـ وـالـصـحبـةـ. ولاـ شـكـ أنـ النـظـامـ السـوـريـ تـلقـىـ مـسـاعـدـاتـ مـنـ عـنـدـ المـالـكـيـ وـبـوـاسـطـتـهـ (منـ إـيرـانـ)، أـكـبـرـ مـاـ تـلـقـاهـ مـنـ جـهـةـ لـبـانـ. فالـطـائـراتـ الإـيرـانـيـ مـراـقبـةـ مـنـ تـرـكـياـ، ولـذـكـ هـنـاكـ الجـهـةـ الـبـرـيـةـ مـنـ طـرـيقـ الـعـرـاقـ، وـالـجـهـةـ الـبـرـيـةـ الـأـكـثـرـ تـعـقـيدـاـ لـتـعـرـضـهاـ لـمـراـقبـةـ إـسـرـائـيلـيـةـ وـالـأـمـيرـكـيـةـ. ويـقالـ إنـ مـقـدـىـ الصـدرـ أوـ الـخـزـعـلـيـ المـنـشـقـ عـنـهـ (فيـ الـحـضـنـ الإـيرـانـيـ)، أـرـسـلاـ عـنـاصـرـ لـمـسـاعـدـةـ النـظـامـ السـوـريـ فـيـ مـحـنـتـهـ مـعـ شـعـبـهـ.

لقد أطلـتـ بـعـضـ الشـيءـ فـيـ إـيـضـاحـ "الـمـنظـومةـ" التي يستندـ إـلـيـهاـ النـظـامـ السـوـريـ منـ النـاحـيـتـينـ المـذـهـبـيـةـ وـالـإـسـترـاتـيـجـيـةـ. ويمكن أن نـضـيفـ إـلـيـهاـ هناـ روـسـياـ الـاتـحادـيـةـ التيـ تـورـدـ إـلـيـهـ السـلاحـ، وـالـتيـ تـدعـمـهـ فـيـ الـأـمـمـ الـمـتـحـدةـ. كماـ يـمـكـنـ أنـ نـضـيفـ إـلـىـ عـوـامـلـ دـعمـهـ الـخـوفـ إـسـرـائـيلـيـ مـنـ نـظـامـ دـيمـقـراـطيـيـ فـيـ سـوـرـياـ يـكـونـ عـدـواـ لـهـ بـالـفـعـلـ وـلـيـسـ بـالـشـكـ مـثـلـ نـظـامـ الـأـسـدـ، وـدـعـكـ مـنـ خـنـزوـنـاتـ حـزـبـ اللهـ بـشـأنـ الـمـؤـامـرـةـ الـأـمـيرـكـيـةـ عـلـىـ نـظـامـ الـمـقاـومـةـ؛ إـذـ مـنـ أـسـبـابـ تـطـورـ الـأـزـمـةـ إـلـىـ هـذـهـ الـأـبعـادـ الـخـطـيرـ التـرـددـ الـأـمـيرـكـيـ الشـدـيدـ فـيـ التـدـخـلـ، لـيـسـ بـسـبـبـ المـوـقـفـ الـرـوـسـيـ فـقـطـ، بلـ وـبـسـبـبـ المـوـقـفـ إـسـرـائـيلـيـ!

لقدـ كانـ مـنـتـظـراـ إـذـ طـالـتـ مـدةـ الـأـزـمـةـ دـونـماـ مـخـرـجـ عـرـبـيـ أوـ دـوليـ أـنـ تـتـطـورـ خـصـومـةـ الشـعـبـ السـوـريـ مـعـ النـظـامـ إـلـىـ صـراعـ مـسـلحـ. وفيـ هـذـاـ الـصـرـاعـ يـقـفـ نـحـوـ المـائـةـ أـلـفـ مـقـاتـلـ مـعـ النـظـامـ بـتـسـلـيـحـ وـتـدـريـبـ جـيدـ، فـيـ مـواجهـةـ نـحـوـ الـمـلـيـونـيـ مـتـظـاهـرـ وـمـحـتجـ وـثـائـرـ، بـيـنـهـمـ تـقـدـيرـاـ خـمـسـةـ عـشـرـ أـلـفـ يـتـمـمـونـ إـلـىـ الـجـيـشـ السـوـرـيـ الـحرـ، وـخـمـسـةـ عـشـرـ أـلـفـ آخـرـونـ حـمـلـواـ السـلاحـ. وـلـيـسـ لـدـىـ هـؤـلـاءـ تـسـلـيـحـ جـيدـ وـلـاـ تـدـريـبـ أـوـ اـنـظـامـ حـقـيقـيـ كـمـاـ فـيـ الـجـيـوشـ، لـكـنـهـمـ قـدـ لـاـ يـحـتـاجـونـ إـلـىـ ذـلـكـ لـأـنـهـمـ يـشـنـونـ حـربـ

عصابات اقتصرت حتى الآن على الدفاع عن النفس بقدر الإمكان، لكنها تتطور إلى الهجوم إذا انهارت المبادرة العربية علينا، بملاذات آمنة أو من دون ملاذات!

المصدر: الشرق الأوسط

المصادر: